

مجموعه قصصية

ذكريات من ويلات الحرب

غزة

سلمى رضا فؤاد

ما خفى أعظم

لكل شهيد قصة وحياة ولكل جريح ندبة لن تبارحها
الأيام، ،

لم يبقَ أحد

ليلة أمس كان يلعب مع أطفال حارته وقلبه حائراً، قلقاً لا يعلم سببه. فهو لم يكمل عقده الأول بعد. لكن عزم هو ومن حوله على ألا تثير تلك الأحداث رهبته. وأصر على اللعب والمرح، وحتى إلقاء النكات، ما أثار قهقهة الآباء والجيران من حوله.

وفي تلك الأثناء، أنتت باقي عائلته من الشمال لتحتمي عنده من حمم القصف والخطر. لسذاجته وطفولته التي لم تسرق بعد، فرح بقدم أبناء عمومته وأبناء خالته من الصبيان والبنات، ليجتمعوا ويلعبوا معاً غير مبالين، أو هكذا يظنون، بما يجري في قطاعهم الصغير.

حتى أصبح المنزل ممثلاً عن بكرة أبيه. وبدلاً من أسرة مكونة من أربعة أفراد، أصبح يحمل عبء واحد وعشرين فرداً. نظر تجاه أبيه وأمه وكأنها نظرة الوداع. وابتسم حتى لاحظته والدته وسألته: "ما بك؟" ليجيب ببراءة: "لا شيء. أنا فقط أشعر وكأنني اشتقت لكم بالرغم من أنكم أمامي".

ليتدخل العم من بين الجالسين مازحاً: "لا تجعلني أقلق بهذا الحديث. بني، إن شاء الله سنعود نحن لدارنا سالمين وستبقون أنتم أيضاً سالمين. وإن حدث أمر ما، فهو مكتوب." ثم نظر لوالد الفتى وتابع: "صحيح؟"

وفي تلك الأثناء، نهضت الأم بملامح قلقه حزينة، بل وحتى عيناها مرهقتان أو مستنزفتان بسبب سقوط الدموع. أما الأب، فلم يجيب، وبدلاً من ذلك أوما برأسه إيماءة بنعم، وعلى وجهه ابتسامة غريبة.

وقف الفتى ناظرًا للجميع بابتسامة براقية غير مناسبة لتلك الأوضاع المزرية واقترح لعبة ما يلعبونها جميعهم. ثم تقدم في الوسط وصاح قائلاً: "معلمي قال لنا العام الماضي: عندما تصل الأمور إلى منحدر صعب ويصعب كسره، وتصبح العملية معقدة بل ومستحيلة... أن نلعب تلك اللعبة الجميلة وهي أن نجتمع مع من نحب ونعبر عن حبنا لبعضنا وأحلامنا وأيامنا السعيدة، نتذكر كل هذا معًا. ما رأيكم؟ على الأقل بعدما ننتهي نحن من لعب الكرة نجتمع معكم هنا ونتحدث مطولاً عن كل شيء؟"

قال الأب بحماس زائف: "فكرة رائعة... حسناً، اليوم بعدما تنتهي أنت وإخوتك ستجتمعون." وبالفعل، ما هي إلا دقائق وذهب الأطفال يلعبون في الأسفل والكبار يتجادبون أطراف الحديث وكذلك النساء بصوت منخفض وكلام قليل.

كانت الدار هادئة إلى حد كبير، خاصة بعد نزول الصغار، ولكن مع ذلك كانت الأفكار صاخبة والرؤوس لم تهدأ، كانت هناك جلبة قاسية حيث تتوالى الأحداث على الشاشة. وقال أحدهم: "قصف اليهود المشفى بالمرضى والجرح ولم يستجب أحد."

ليكمل الآخر بسخرية: "بعد كل ما عشناه معاً، اتضح أن حياتنا رخيصة." ليرد رجل عجوزاً بحكمة قائلاً: "لم تكن الأرواح يوماً رخيصة، حياتنا غالية حتى ولو أنكر الجميع... أما عن الصماتين والمتخاذلين، فحتمًا سيذوقون مرارة مواقفهم." عم الصمت المنزل وتوقف الجميع عن الحديث.

في حالة انتظار ما ستبوح به الأيام، قرع الباب معلناً عن قدوم الصغار. دخل الفتى مسروراً وقال: "حان الوقت." ابتهج الأب وكذلك العم، ورغم أنهما تناسيا ذلك الأمر إلا أنهم عزموا على عدم خيبة الفتى واجتمعوا في غضون دقائق. كانت غرفة المعيشة مكتظة بكل أفراد عائلتهم، ولكنهم بطريقة ما وجدوا حلاً، حيث قاموا بالتناف على شكل دائري ومن بينهم صغار وكبار ونساء... عائلة كاملة. هتف الصغير ببراءة: "فلنبداً."

ثم نظر إلى والده وتابع قائلاً: "ما حلمك يا أبي؟". ليرد الأب بحزن:

"أن يزول الظلم وأن يكف المحتل عن سفك الدماء." التفت الصغير نحو أحد الأشخاص وسأل: "وأنت يا أخي؟". فأجاب الأخير: "أكمل دراستي وأصبح طبيبياً لأعالج الناس." حل الصمت مجدداً حتى تحدث الصغير أخيراً قائلاً: "وأنت يا عمي... أرجو هذه المرة أن تحلم حلماً واقعياً". رد العم: "حلمي... لا أعلم ولكن في تلك اللحظة أريد النجاة النحاة فقط." تدخل الجد بصوت حنون قائلاً: "جميعنا نتمنى النجاة ونحب الحياة، ونخشى أيضاً الفراق والاختبارات... صمت قليلاً كأنه أراد البكاء، وفي تلك الأثناء نهض الفتى وتقدم نحو جده ومسح على وجهه وقال بتساؤل وتعجب: "لماذا تبكي يا جدي؟".

ليرد الجد بإشفاق: "لأنكم لا تستحقون تلك الحياة... الآن مفترض أن يخضع أخوك الأكبر وأختك لاختبارات نهاية العام، وأنتم الصغار مفترض أن تعيشوا وترى بهجة الحياة، وليس مآسيها وقسوتها... من أين لكم أن تعلموا السلاح والقصف والاسرى والجنود والفقدان وتلك المصطلحات... أليس من حقكم أن تعيشوا في أمان.. أن قلبكم لا يزال ينبض الا تسحقوا الحياة؟".

تنهد أحدهم وكانت تلك امرأة قالت: "لا تكن بانساً يا أبي، هذا قدرنا. وإن كتب لنا النجاة فنحمد الله، وإن استشهدنا فهذا والله لأفضل من مائة دنيا أو حياة على الأقل نتخلص من أولئك المتخاذلين والظالمين فاقدين الرجولة والشهامة".

تحدثت إحدى الصغار بنتاؤب قائلة: "أخشى الموت.. أخشى أن أكون أشلاء.. لا لا لا أريد ذلك كما يرهقني أن تقلع هنا حبيسة بين الجدران"

وكان هذا بمثابة صحوه الواقع والألام، فالبعض لم يتماسك وبكى، والبعض الآخر قلبه بدا خافقاً، ليس خشية من الموت ذاته، ولكن مشاعر مضطربة وكثيرة متداخلة تدور وتدور داخل عقولهم. من كان يتحدث عن الدراسة والطب والامتحانات، كان يتهرب من الواقع لأن أكثر أحلامهم تبخرت منذ بداية الحرب، لذا يتلوه حديثاً لا أثر له حرصاً منهم على تجنب رائحة الموت المنبعثة في كل مكان.

جميعهم أرادوا الحياة، وكان هذا آخر اجتماع وحوار دار بينهم.

صمت تبعه صمت تبعه آخر.. حتى ثناءب واحدٌ وَقَرَّرَ أن يستلقي عسى أن ينام وتمر الأيام وينجو. تفرقوا.. كل مجموعة ذهبت إلى

غرفة ما، حيث يقدر عددهم واحداً وعشرين فرداً مقارنة بتلك الغرف الصغيرة والمتوسطة التي لا تناسب البتة تلك الأعداد المتدفقة. لم ينام أحدٌ تلك الليلة أو بالأحرى تلك الليالي، وكذب من قال عكس هذا.

الساعة الثانية بعد منتصف الليل ،،

أطلقَ صاروخ مباشرة نحو ذلك المنزل الذي يقطن فيه حوالي واحد وعشرون شخصاً، من بينهم أطفال ونساء وكُبار .

مات الفتى ومات أبواه وجده وعمه، بل وماتت العائلة كاملة، فقد تم مسحهم عنوة من السجل المدني، ومُحووا تحت أنظار العالم بأحلامهم وحبهم وعشقهم للحياة، حتى لم يُرحمهم العالم، فلم يقدم عناء تقديم الأدوات لإخراجهم أموات.

لم يبقَ بالأماكن إخراجهم من تحت الأنقاض والركام ليظلوا جثثاً هامدة تحت الأحجار كأثراً لتلك الأيام.

تجمع الأهالي في بداية الأمر نحو المنزل المُستهدف، والليل دامس بحيث لا ترى كف يديك، ومع ذلك توافد الجيران من كل صوب وحذب بكشافات صغيرة منبعثة، وحاولوا بكافة الطرق إخراج من يمكن إخراجهم سواء كانوا جثثاً أو أحياء، ليهتف أحدهم صارخاً: "لم يبقَ أحد .. لم يبقَ أحد يا عالم. "

أستمرت المحاولات قرابة ساعتين متواصلين ولكن بلا فائدة وما كانت تخشاه الصغيرة قد حدث بالفعل فكانت عالقة ما بين الجدران وان العم فلم يتمكن من النجاة.

مات الصغار والكبار والرضع لم يتم إنقاذ أحد تلك الليلة فمات من مات وتبقى ذاكرتهم سراب. عشرات القصص يشجن له الاذان من قبل جنود واليات ضخمة .. لا تزال تصف حتى اللحظة بأنها الاكثر أخلاقية. تلك حقيقة مسلم بها وليست هراء! خرج الفتى وعمه جثثاً والباقي لا زال مفقوداً تحت الركام

من أجل كيس طحين

أسرة صغيرة تضم خمسة أفراد استطاعت النجاة من القصف، حيث اتخذوا الخيمة ملاذاً آمناً. ليعودوا إلى دارهم ويجدوها مقصوفة وغير قابلة للسكن أو صالحة للحياة.

كان الأب يراوده مشاعر غريبة ما بين السعادة بالنجاة والحزن على الركاب.

أخذت الأم تتصنع الفرح حتى تخفف وطأة الصدمة على الصغار وزوجها الذي بات مكسور الجناح.

فهذه الدار التي هدمت للتو في لحظات لها قصة خاصة، فهي قد بنيت بعد تعب وشقاء، مثلها مثل الكثير من البيوت المدمرة بفعل الاحتلال.

ومع ذلك، تصبح النجاة هي ألدّ شهية من الموت، حينما تدرك أن الموت قد يجعلك أشلاء مبعثرة أو يأتي بلا أكفان.

عاشت تلك العائلة مع بعضها البعض متكاتفة منذ بدء الحرب، فهم نجوا بالفعل من قصف الدار وتبعه النجاة من مجازر الخيام، وأيضاً من ذلك الجندي المتربص لهم بالسلاح.

يوماً تلو الآخر، وفي كل يوم، لا بد من عمليات شاقة .. فقط لتوفير مقومات الحياة من طعام وشراب. فلم يريدوا ألدّ الأطفمة ولا حياة

فارهة، إنما أرادوا فقط الشعور بالأمان، وهذا ما تفتقده جميع عائلات هذا القطاع.

بدأ الأمر ينذر بكارثة حينما عاد الأب خالي الوفاض حيث لم يستطع الحصول على كيس طحين، ومن خلفه آباء وأمهات فقدوا ذويهم فقط لهذا الكيس.

نظرت الزوجة له في محاولة لطمأنته، ولكن حتى هي لم تعلم أنه سيصبح يوماً شهيداً لهذا الكيس .

ففي اليوم التالي، تجمع مع مجموعة كبيرة من الناس في انتظار عربة المساعدات، عسى أن تأتي بأي شيء يسدّ جوع الأولاد .

انتظر حتى مرّت عدة ساعات، وفجأة صدر صوت شاحنة كبيرة، وكانت هذه بمثابة الأمان .. على الأقل في تلك اللحظة من المأساة.

هرع الأب مسرعاً حاله كباقي أهالي القطاع من حوله، يهرولون مسرعين بغير حرص أو اكتراث، حتى سقط بعضهم البعض.

على الرغم من علمهم بتلاعب جنود الاحتلال فقد سبق وارتكب بحق الأهالي مجازر نتج عنها طعام مغمس بالدماء.

أثناء تلك الحالة المضطربة، صدر صوت إطلاق نار تبعه أصوات أخرى، لينتج عن ذلك مجزرة الطحين.

مات الأب ومعه الكيس.

ترى كيف يكون مصير تلك العائلة ومن فقد ذويهم لأجل الطحين ؟

إشلاء يا عالم

كان شابًا يافعًا حيث أحب الحياة وبادلته هي كذلك بالحب والإقبال.

تزوج بعد قصة طويلة ومن ثمة أنجب فتاة، وبهذا نجح في بناء أسرة بسيطة. كان طموحًا هو وزوجته .

منذ البداية، اتفقا على مجارة الحياة، فنجحا في بناء عدة مشاريع ليبنيا بيتاً ويشتريا سيارة ويعوضا ما فاتهما من معاناة وشقاء. انتظرا اللحظة حتى يستريحا ولو لحظة كهدنة بعد إرهاق وآلام.

ثلاثة أفراد عشقوا الحياة، جمعتهم حب المغامرة والمشاركة ورفاهية الأيام. لم يتوقعوا يوماً أن يكونوا أشلاء .

منذ اندلعت الحرب، فكر هذا الشاب أن حياته وحياة من يحب أثمن من مائة دار أو أحلام. وليعوضه الله عن تلك المشاريع، وحتى عن بيته

الذي بناه بعد جهد واقتدار، ما عليه إلا الدعاء بحفظ ما ترك عسى أن يعود يوماً، ووضع في اعتباره أنه في حالة حدوث مكروه فلا بأس أن يبدأ مرة أخرى مع شريكته من الصفر أو حتى من أدناه.

لذا، أخذ سيارته ومعه زوجته والفتاة الصغيرة التي لم تنعم بعد بالحياة.

ظنّ منه أنه يفعل الصواب. أخذ آخر ما يملك من سيارة وبعض الاحتياجات في طريقه نحو ملاذ آخر قال الاحتلال إنه أكثر أمانًا من باقي القطاع.

ذهب بحسن نية، رجل وامرأة وابنتهما ذات الأربع سنوات.

كانت الصغيرة تجلس في الخلف بعينين دامعتين حيث تركت دميتها
المفضلة وألعابها، وذلك نتيجة عجلة والدها في المغادرة فوراً.

نظرت والدتها في عينيها ورأت الفتاة تلوّح بيدها وتتنظر بدموع إلى
السماء. وفي تلك اللحظة، اتضح أنها نظرة الوداع.

فجأة، انقطعت الحياة بلون اداكن أسدل بعده الستار.

وكتبت تلك الأسرة الصغيرة من ضمن الشهداء، ومع الأسف لم يعثروا
على جثمان، وإنما عثروا على أشلاء.

لم يُدرك الشاب أن حياته الجديدة ليست في تلك الدنيا الظالمة، ولم تُدرك
ابنته أنها بالفعل ستعود إلى دميته، أم الزوجة فتقابل زوجها وابنتها في
مكانٍ إيمانٍ أكثر من الحياة .

على الجانب الآخر، هرول الجميع نحو تلك السيارة المدنية التي كانت
محتربة، وبالكاد لا يمكن رؤية ما فيها إلا رماداً، لا يعرفون حتى هل
كان فيها حقاً بشر أم لا. ولكن عرفوا عندما جمعوا الأشلاء.

صاح أحدهم لذلك الصحفي والمصور: "أشلاء يا عالم" .

النفس الأخيرة

ما رأيت قطّ عيناً زائغة كعيون أطفال غزة، ولا رأيت قلباً كقلوبهم الضعيفة الهشة، وهي ترتجف من أصوات المسيرات والقصف والقتل والنزوح والتهجير.

أطفال دون العاشرة من عمرهم يلتقطون النفس الأخيرة، ليعلن بعدها أن هذا الصغير لم يعد يحتمل ظلم العالم وبطش الخونة والمتخاذلين، وحتى التهديد بمزيد من القتل لصفوف كاملة من العائلات والأطباء والصحفيين، ليتضح مؤخرًا أن من حسن حظه قد استشهد، ومن أعناق عائلته قد فارق.

نعم، في غزة يُخْتَطَفُ الطفل عنوةً من عائلته، أما أسيرًا أو شهيدًا أو حتى مصابًا جريحًا .

من بين أكثر الصور إيلامًا لأطفال غزة، ليست القهر والظلم ولا الخوف مقارنةً بباقي أطفال العالم، وإنما لحظة إنقاص النفس الأخيرة . إحدى هذه الصور لا تزال عالقة في الأذهان، وأنا على يقين أن كل من رأى تلك الصور وشاهد تلك اللحظات لا يبرح سالمًا إلا وعاد وتذكر ليختلج قلبه ألمًا.

فما بال العائلات؟ إحدى تلك الصور كانت لفتاة صغيرة، جميلة جدًا، تبدو في السادسة من عمرها، ترتدي ثياباً رائعة تشبّهه، لمقابلة على أرض المشفى، وبجانبيها عدة مسعفين وأطباء، واضعين في منتصف جسدها الضئيل قطعةً من قماش أو شيء ما موضع الإصابة. تبدو أن

تلك الإصابة ن اتجة عن إحدى الشظايا. كانت لحظات فارقة وعصيبة
لا يتحملها قلب بشر.

نحن لبعدنا عن غزة كنا نشاهد عبر شاشة هاتف، في فيديو صغير، لا
يتخطى عدة ثوانٍ وبعض اللحظات.

عينها زائغة، وبدأ فمها يضم بلا إرادة منها، كأنها تحاول جاهدة
التقاط النفس الأخيرة، لتستشهد بشظية ظالمة تسلب طفولتها وروحها
معاً.

ما جذبني نحوها هو حذاؤها. نعم، كان يبدو جديدًا لدرجة أنني فكرتُ
ملياً فما لو كان أنه من ضمن أحد ثياب الأعياد، أو حتى قادمًا من فترة
سابقة تلك الحرب الهوجاء. وخشيتُ أن يكون تفكيري صواب، فهل
يكون حذاؤها شاهدًا على سعادتها وكذلك يوم موتها واستشادها ؟

الصمت

كانت تجلس على حافة الفراش. وفي ذات الحجرة، كان يقف على مقربة منها صامتاً كما كانت هي. كلاهما فقد ذويهما حديثاً، فوحدتهما الحزن في مشاعرهما وسلوكهما، فلم يبكي ولم يصرخا.

أتعلم كيف كانت ردة فعلهما؟ نعم، ذلك الصمت مجدداً الذي يطغى عليهما في أحلك الأوقات.

كانت تصغره بعشر سنوات، وكان هو منكبا نحو هاتفه متظاهراً بالهدوء واللامبالاة.

كانت لا تزال تجهل كيفية ربط حذائها، فلطالما كانت والدتها تفعل ذلك لها دون كلام. لاحظ صعوبتها في ربط حذائها، وأدرك أنه حينما يقترب ليساعدها، ربما تبكي أو حتى تصرخ.

بالطبع، ذلك سيعيد لها الذكريات، لا سيما لم يمر على الفراق إلا أيام. ترك هاتفه وتقدم نحوها، ومن ثم اتكأ بركبته على الأرض، وتعتمد عدم النظر في عينيها، وساعدها كما كانت تفعل والدتها.

بعدها انتهى، شعر كما لو أن قلبه قد ثقل، خاصة بعدما رآها صامتة، بوجه شاحب، وفي عينيها دموع خانقة تأبى أن تخرج منذ ليلة الفراق. فشعر بالشفقة تجاهها، واقترب منها أكثر حتى تعانقا.

كان قوياً، فالمحن عليه كانت أشد قوة مقارنة بها، فهو فقد في يوم واحد أكثر من عشرين شخصاً من عائلته، ومن أبرزهم والداه، بينما هي

فقدت والدتها فقط. ومع ذلك، لا زال صامتاً ويعانقها ليخفف وطأة
الآلام.

بكت، وكانت تلك أول ليلة تعبر فيها عن حزنها الشديد، فما كان منه إلا
أن ساعدها على ذلك لأنه يعلم أن الصمت هو أعظم بلاء. أما هو فلا
زال ساكناً سكون الأموات.

هل حان دورنا ؟

لم تغفَ عيناه قط. لاحظ والده شروده، فاقترب منه وجلس بجواره في تلك الخيمة الباردة قائلاً: "لماذا لم تنم يا صغيري؟"

ليجيب الأخير بصوت خافت وحزين: "يؤرّقني هذا السكون يا أبي، فيلاحقنا حتى هنا في خيمتنا بعد نزوحنا مرارًا وتكرارًا. أتساءل: هل ستصل أسلحتهم وقصفهم إلى هنا كما حدث سابقًا في دار خالتي؟ لا، لا، لا أريد أن يحدث ذلك، ففي تلك الحالة سنكون أشلاءً لا محالة، وربما نُدرج في النشرة القادمة ضمن حصيلة كبيرة من الشهداء."

صمت قليلاً ونظر إلى والده وأضاف قائلاً: "أبي، ألا يُشبه هذا الصمت إلى حد كبير سكون دارنا قبل قصفه بلحظات؟ هل يوجهون أسلحتهم صوبنا الآن، أم ستتهال علينا براميل أعددت لنا من المتفجرات .. هل نستحق ذلك؟"

فجوة بين الماضي والحاضر

في إحدى خيام النزوح، تقطن عائلة من خمسة عشر فردًا. لطالما ظلت الخيمة ملاذًا آمنًا وستراً للعائلات، حتى في ظل اختراق المحتل لكل القوانين والأعراف.

ففي النهاية، تبقى الخيمة الوسيلة الوحيدة المتاحة للعيش في تلك البقعة من الأرض.

وفي أحد الأيام، خرج جميع من في الخيمة عدا شخصين: الأب وابنته. منذ شهور لم يمكثا معاً، فكانت تلك فرصة نادرة قد لا تتكرر في الأيام القليلة المقبلة

اقتربت الفتاة من والدها وسألته: "لم أراكِ تبكي في حياتي كلها، حتى بعد فقدان أُمِّي وبعض إخوتي وحتى بعد هدم دارنا الوحيدة. هل من الطبيعي ألا يبكي المرء في تلك الظروف؟".

أجاب الأب وهو يحرق في عيني ابنته باهتمام: "من قال هذا؟ لقد بكيتُ بالفعل، لكنني أحاول قدر الإمكان أن أتجنب فعل ذلك أمامكم." سكت قليلاً ثم تابع: "ماذا عنكِ أنتِ؟ لماذا لم تبكي مطلقاً؟".

نهضت فجأة، لكن يد والدها سبقتها فأجلسها مجدداً بجانبه. انحنى ونظرت إلى وجهه المألوف، ثم قالت بصوت هامس: "إذا قلتُ لكِ السرّ، ربما لا تصدقني وتظنّني مجنونة."

أجاب الأب مسرعاً، فقد تسلل القلق إليه من نظرة ابنته الغامضة، وقال: "لا أظنّكِ مجنونة. ما الأمر؟".

قالت الفتاة: "منذ الليلة التي قُصف فيها دارنا، لم أفتنع بعد بفراق أمي وإخوتي أو منزلنا. فأشعر كما لو أننا نعيش الحياة ذاتها مع بعضنا البعض. أعني، لم يتغير شيء. وهذا جيد، وبالمناسبة، هو ما يجعلني أستمر وواصل الأيام."

تنهدت ثم قالت: "ولكن المشكلة يا أبي، هي أنني لا أشعر حتى بالاشتياق لهم. ربما لأنني لم أصدق بعد.

أما عن حالنا هذا، فكأن الدنيا تبدلت ونحن كأشخاص تغيّرنا. فأنت لست الأب الذي عاهدته، وحتى أنا لست الفتاة ذاتها. هناك ثغرة ما، ولا أدري ما هي."

بينما كانت الفتاة تتحدث، انتظر والدها أن تبكي تعبيراً عما تشعر به، لكنها ظلت تتحدث بلا هوية أو شخصية كما عهدتها. فهي تبدو صادقة لدرجة إيمانها بأنهم لم يرحلوا من الأساس. ربما قد فرقت بين ماضيها وحاضرنا وعلقت بالمنتصف.

ثم أضافت: "الأمر سخيّف، ولا أظنّ أنه سيستمر هكذا. هناك فجوة، هناك خطب ما. ألا تعلم ما هو يا ترى؟"

خاتمة

التاريخ يعاد ويتكرر ولكن العبر والدروس لم يستفاد منها بعد.

لا قلق على فلسطين ولا على شعبها حتى ولو بعد سنة كاملة من الحرب ورغم الخذلان. وإنما تكمن الكارثة في ضمائر العرب والمسلمين المعاصرين لتلك الحقبة من الزمن وتلك الفترة الفارقة التي يشجب لها الجبين. لن يغفر لنا التاريخ وسيضعنا في المسودة المنطوية في إحدى السجلات المهينة والتي كنا يوماً نقرأ عنها بل ونستنكر ونطلق على من عاصرها بالمتخذلين. لنصبح نحن السجل التالي ونكن مثلهم.

ربما عائلات نسفت بأطفالها ونسائها وشيوخها وبقي بعضهم تحت الألقاض، ربما قتلوا كثيرًا ولا زالوا يقتلون حتى اليوم في سلسلة بدأت بالخذلان منذ أكثر من خمسة وسبعين عامًا لتنتهي تلك الفترة بشهادتها علينا بتواطؤنا وصمتنا المطبق لا يمكن تجاوز أو نسيان ما جرى إلا بإحلال الوحدة والمروءة واتحاد المسلمين وإيقاظهم بعد هذا النوم والثبات العميق.

نعم، اتسعت الحرب بأشكالها المختلفة لمحتل يمارس التوجيع والقتل والأسر كعقاب لشعب قرر البقاء والصمود على أرضه ليردد المحتل عسى أن يتخلى بعضهم وينجو بحياتهم فلا أغلى من الحياة في نظرهم . نعم، ازدادت حدة الجرائم، فلا مستشفى سلمت إلا وانتهكت بالقصف أو الحرق أو الاقتحام، ولا صحفي مارس مهنته إلا ودفع ثمنًا غالبًا سواء

بنفسه أو عائلته، ولا طبيب ولا مسعف إلا وكانت حياته دائمًا على المحك مرهونة بعمله.

ممارسات ما قبل السابع من أكتوبر ظن بها المحتل أن هذا الشعب سيخضع، وأن الأمة الإسلامية والعربية ستندثر. ليأتي ذلك اليوم وتتضح معالم أخرى. ربما، ثبت بعضها مع الأسف، ليتبين منها أن العرب وصلوا لمرحلة العار والخزي وحتى الاندثار، وان كان بشكل مؤقت، وهذا ما يجهله المحتل، فلا يمكن أبدًا التنبؤ باستمرار هذا الخذلان. فحتمًا الضعف والخذلان والخيانة يتبعه القوى والإيمان والحق، لا سيما عندما تكون الجذور صادقة وعادلة وليس من سماتهم هذا التواطؤ والصمت البارد.

أما عن فلسطين وشعبها، فبقوا كما هم، لأنهم ببساطة هم المعنيون. فقد عانوا، وليس هذا بالأمر الجديد. يدركون تمامًا هذا المحتل وجرائمه على عكس ما نحن عليه العرب فلا نسمع بأنين العذاب المنبعث من تلك الرقعة الصغيرة ولا نرى ما يجري في الضفة إلا لو كان بصدد جلال عظيم، بينما هم تارة يتألمون وتارة يصمدون، هم فقط يدركون، أما عن أطفالهم فيعلمون الأسر جيدًا فذاقوا التشريد واليتم مبكرًا. هم فقط من يعلمون تدمير المنازل حتى تكون أنقاضًا واضطرار العيش في الخيام ومجاعة الحياة أثناء الحرب في انتظار انتهاء هذا المحتل من ممارساته الهوجاء.

من آثار ما بعد السابع من أكتوبر هو نهضة أطفال هذا الجيل على مشاهد القتل والتشريد والتجويع والخراب الظالم على شعب أعزل.

فبينما أجداد هذا الجيل لم يفعلوا شيئاً سواء بمحض إرادته أو لا، ربما أطفاله هم القادمون. ما عاشه كل طفل وامرأة في غزة والضفة لا يمكن أن يمر دون عقاب، فالتاريخ ليس ظالماً مثلنا نحن الآن، وإنما يتأني حتى يعد أعداداً جيداً للرد. كل صحفي وثق تلك المجازر والإبادة بحق ٢.٥ مليون إنسان، سيثمر نتاجه ربما ليس الآن وإنما فيما بعد. قبل التحرير تأتي التوضيحات، ولأن الأقصى المبارك ثمين، فتضحياته في المقابلة بالغة. في الأخير، يحب التنويه على أن كل غزي إنسان يتألم ويضعف مثلنا تماماً، كذلك يتصور جوعاً إن لم يأكل ويمرض، ومن حقه كذلك أن يعالج.

لديه أحلام وطموحات وكذلك حياة، مستعد أن يفعل أي شيء لينجو بها، ومع ذلك وجد حرباً غير عادلة مفروضة عليه منذ ولادته في غزة أو فلسطين المحتلة. ولكن ما يميزه عنا نحن شعوب العرب والمسلمين هو الإيمان والشجاعة والمروءة والكرامة التي فقدناها

أغلبنا اليوم. ربما لم نكن معكم في تلك الفترة، ونأسف لخذلانكم، ولكن أصمدوا كما أنتم، فوالله سيشهد التاريخ أنني أضعف أمة على العرب المسلمين بتركنا إراقة دماء أطفال ونساء ورجال غزة الأحرار.

صابروا قليلاً، عسى أن ينهض من ذلك الركاب بطلاً نقف معه ضد أعداء الإنسانية وطغاة الظلم.

